الأسس الإيمانية لنظرية النظم البيانية عند عبد القاهر الجرجاني

Theistic foundations of graphic systems theory By Abdul Qaher Al-Jarjani

الباحثة: عبد الله بن الفقير

طالب باحث في سلك الدكتورة، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

تاريخ الاستلام: 2023/11/11 تاريخ القبول: 2023 /11/21 تاريخ النشر: 2023/12/15

الملخص:

هدف هذا المقال إلى التعرف لأثر قضية المرجعية العقدية الأشعرية في نظرية النظم عند الجرجاني؛ وتكمن أهميته في أهمية هذه النظرية في الدراسات البيانية والقرآنية، حتى قيل: إن إعجاز القرآن كامن في نظمه، وتَعالقِ كَلِمِه، وتناسب مقاطعه وآيِه، وقبل أن نخوض في تمحيص هذا الادعاء، وبيان صدقه أو كذبه، يلزمنا البحث في الأسس المرجعية التي بُني عليها هذا القول، مستهدين بالمنهج الإبستمولوجي، في الكشف عن الأصول المعرفية لهذه النظرية. فيتوخى هذا المقال الكشف عن المرجعية العقدية لنظرية النظم عند الجرجاني في دلائل الإعجاز؛ وذلك برصد تطور صفة الكلام الإلهي عند الأشاعرة؛ في وقت تأسيس المذهب مع الأشعري والباقلاني، ثم عند محققي المذهب: الجويني والغزالي. ويرتجى أيضا الاطلاع على العلاقة بين صفة الكلام الإلهي عند الأشاعرة ونظرية النظم –عند الجرجاني–، التي هي توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

الكلمات المفتاحية: نظرية النظم، الأشاعرة، الكلام النفسي، المعاني.

Abstract:

The aim of this article is to identify the impact of the issue of Ash'ari doctrinal authority on Al-Jurjani's theory of systems. Its importance lies in the importance of this theory in rhetorical and Qur'anic studies, to the extent that it has been said: The miraculous nature of the Qur'an lies in its arrangement, the interconnection of its words, and the proportionality of its sections and verses. Before we go into examining this claim, and explaining its truth or falsity, we need to research the foundations of reference on which this is built. This statement is based on the epistemological approach in revealing the cognitive origins of this theory. This article seeks to reveal the doctrinal reference to Al-Jurjani's theory of systems in the evidence of miracles. This is done by monitoring the development of the attribute of divine speech among the Ash'aris. At the time of establishing the doctrine with Al-Ash'ari and Al-Baqalani, then with the investigators of the doctrine: Al-Juwayni and Al-Ghazali. It is also hoped to examine the relationship between the attribute of divine speech according to the Ash'aris and the theory of systems - according to Al-Jurjani - which is the investigation of grammatical meanings between words.

Keywords: systems theory, Ash'arism, psychological speech, meanings.

المقدمة":

يُعد نظم القرآن مظهرا من مظاهر إعجازه، وقد أثارت هذه القضية الباحثين في علوم اللغة وعلوم البيان، واشتغل بها علماء إعجاز القرآن، وتنوعت مجالات دراساتهم؛ بين متتبع لنظم الآي فيما بينها، ومتطلع إلى سر ترتيب السور، ومنقب عن لطائف سبك العبارة، ودقائق تأليف الآية، وهذا المنزع هو موضوع علم النظم، كما أسس له الجرجاني بعد أن استلهم بوادره من الجاحظ والواسطي والقاضي عبد الجبار المعتزليين؛ إلا أن اختلافه معهم في المذهب العقدي نحى به إلى تأصيل بياني لنظرية النظم تتماشي مع مذهبه الأشعري.

وقد أصبحت هذه النظرية فيما بعد عَلَما على إعجاز القرآن، فمتى أطلق الإعجاز انصرف إلى نظم القرآن كما فهمه الجرجاني؛ وأضحت مسلكا معرفيا بيانيا مهما؛ غير أن البيان ينبني على الإيمان؛ أي أن القول في القرآن من جهة البيان يبنى على المذهب العقدي، ولم تكن هذه النظرية القرآنية البيانية لتخرج عن هذا النسق المعرفي الكلي. فسعى البحث إلى بيان العلاقة بين البيان **"نظرية النظم"**، والإيمان **"المذهب الأشعري"**.

وجاء والمقال في محورين، -تحت الأول مطلبان، وتحث الثاني ثلاثة مطالب-، مهدت لهما بتمهيد، وختمتهما بخلاصات تركيبية. **التمهيد**: جعلته لبيان الكلام في اللغة، وفي اصطلاح الأشاعرة. **والمحور الأول:** خصصته لرصد تطور صفة الكلام في المدرسة الأشعرية منذ التأسيس إلى التحقيق. **والمحور الثاني**: تناولت فيه أثر القول بالكلام النفسي في نظرية النظم عند الجرجاني. **وخاتمة:** لخصت فيها ما تفصل في المقال.

تمهيد:

نعرض فيما يلي لدلالة "الكلام" في اللغة، ومعناه في اصطلاح الأشاعرة:

أولا: معنى الكلام في اللغة.

الكلام اسم مصدر من كلّم يكلم تكليما وكَلاما وكِلاّما، وتكلم الرجل يتكلم تكلما وتَكلاما، وكالمته أكالمه مكالمة. ورجل تِكلام وتكلامة وتكِلاّمة وكِلْمانيّ: جيد الكلام فصيح، حسن الكلام منطيق. ورجل كِلِمّاني: كثير الكلام[1].

وتدور مادة (ك ل م) على أصلين؛ أولهما: نطق مفهم. والثاني: الجراح[2]. والمراد الأول.

والكلام في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم[3]. وهو من حيث أصل اللغة بمعنى القول واللفظ؛ فيطلق **"الكلام"** على كل حرف من حروف المعجم، أو من حروف المعاني، وعلى أكثر منه، مفيدا كان أو لا؛ لكن **"القول"** اشتهر في المفيد بخلاف **"اللفظ"**، واشتهر **"الكلام"** في المركب من جزأين فصاعدا[4].

ثانيا: الكلام في اصطلاح الاشاعرة:

الكلام عند الأشاعرة هو: "القول القائم بالنفس الذي تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات"[5]، وهو معنى القائم بالنفس؛ أي الفكر الذي يدور في الخَلَد[6].

ولكنهم اختلفوا في قضية اللفظ والمعنى من حيث الحقيقة والمجاز على قولين:

- **الأول**: الكلام حقيقة في المعنى، مجاز في اللفظ؛ بمعنى حقيقة في المعنى القائم بالنفس، والحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام؛ بل هي دالة عليه، فسمي كلاما مجازا وتجوزا، وهذا قول جماهير الأشاعرة[7]. قال الجويني: "ومن أصحابنا من قال: الكلام الحقيقي هو القائم بالنفس، والعبارات تسمى كلاما تجوزا كما تسمى علوما تجوزا؛ إذ قد يقول القائل سمعت علما وأدركت علوما، وإنما يريد العبارات الدالة على العلوم"[8].

- **الثاني**: الكلام حقيقة في اللفظ والمعنى، ويطلق على اللفظ وحده حقيقة، وعلى المعنى وحده حقيقة، وهذا قول الجويني وغيره[9]. قال الجويني: " الطريقة المرضية عندنا أن العبارات تسمى كلاما على الحقيقة، والكلام القائم بالنفس كلام"[10].

1- ينظر: لسان العرب، ابن منظور. ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، (د-ت). مادة (ك ل م) في: 12/ 522 – 524.

2- مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون. (د-ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د-ت). 5/131.

3- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي. (د-ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ت). 2/539.

4- الكليات، الكفوي. تح: عدنان درويش، محمد المصري. (د-ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (د-ت). ص: 710.

5- الإرشاد إلى أصول الاعتقاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. مكتبة الخانجي، مصر،1950. ص: 104.

6- نفسه: ص: 105.

7- مسألة كلام الله تعالى، عائض بن عبد الله الشهراني. مجلة العلوم الشرعية، العدد: 29/ شوال 1434. ص: 252.

8- الإرشاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. ص: 108.

9- مسألة كلام الله تعالى، عائض بن عبد الله الشهراني، ص: 252.

10- الإرشاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. ص: 108.

المحور الأول

كلام الله عند الأشاعرة

اشتغل أبو الحسن الأشعري بالرد على المعتزلة وبيان بطلان مذهبهم، فناقشهم في كل مباحث العقيدة، وعارضهم بالحجة النقلية والبراهين العقلية، ومن أهم المسائل التي دار حولها النقاش قضية كلام الله تعالى، وتولى المعتزلة كبرها حيث قالوا إن كلام الله مخلوق، واستعر لهيب هذه القولة في مجالس العلم، وفي مراكز السلطة ومنابر القضاء، وامتحن فيها جمع من علماء الأمة، وكان للمعتزلة دوافع اجتماعية وعقلية حتمت عليهم القول بخلق القرآن؛ ولكن الإمام أبا الحسن الأشعري بعد أن عاش في كنفهم ردحا من الزمان، وتمرس بأساليبهم العقلية في الاستدلال، ومناهجهم في الإثبات والنفي، رأى أن أصولهم لا تقوم على قواعد راسخة، فمال عنهم وجاء بأفكار جديدة، تجيب عن تساؤلات راهنة، وتفك عقد الكثير من المسائل المثارة في الساحة الإسلامية، فنحى منحى بديعا في كلام الله تعالى فأثبت أن كلام الله قديم قائم بذات الله تعالى، ثم جاء من بعد منظر المذهب ومؤصل قواعده الإمام أبو بكر الباقلاني، فهذب المذهب "ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار"[11]، ومنها أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول، ثم جاء من بعده الإمام الجويني فتوسع في مسائل الكلام وبسط القول على طريقهم، ثم انتشرت علم المنطق "وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسبر به الأدلة منها كما يسبر سواها"[12]؛ ولذا لما جاء الإمام الغزالي ناقش المسائل العقدية المثارة في عصره وقبله وأوغل في المباحث العقلية معتمدا على المنطق في التعليل والاستدلال؛ ولهذا نجده خالف القاضي الباقلاني في بعض المسائل لما عرضها على قوانين المنطق، ومنها أن بطلان المدلول لا يكون من بطلان الدليل، وتسمى طريقته في البحث العقدي "طريقة المتأخرين: وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية، وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم"[13].

المطلب الأول

صفة الكلام عندي مؤسسي المذهب الأشعري والباقلاني

أولا: الإمام الأشعري

لم يفض الإمام الأشعري في قضية الكلام في كتبه التي وصلت إلينا؛ ولهذا نجده يوجز في **"الإبانة"** و**"اللمع"**، بينما ينقل عنه الشهرستاني أو ابن فورك فيفض ويتوسع، ولا ندري هل ينقلون عنه كلامه أو أنهم ينقلون ما فهموه من كلامه أو ينقلون من كتب له لم تصل إلينا؟؟، وقبل أن نذكر ما نقل عنه بالواسطة نعرض لكلامه في كتبه.

قال الأشعري بعد أن ساق عدة أدلة قرآنية نقلية منها ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[14] "ولم يخص قوله الخلق دليل، كان قوله ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ**﴾ في جميع الخلق، ثم قال بعد ذكره الخلق ﴿**وَالأَمْرُ**﴾ فأبان الأمر من الخلق وأمر الله كلامه، وهذا يوجب أن كلام الله غير مخلوق، وقال عز وجل ﴿**لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**﴾[15]؛ يعني من قبل أن يخلق الخلق ومن بعد ذلك، وهذا يوجب أن الأمر غير مخلوق"[16].

ونقل عنه الجويني في الإرشاد: "قال شيخنا -رحمه الله- الكلام ما أوجب لمحله كونه متكلما"[17].

---

11 – المقدمة، ابن خلدون. تح: سعيد عقيل. دار الجيل، بيروت، لبنان، 2013. ص:397.

12 – المقدمة، ابن خلدون. تح: سعيد عقيل. ص: 397.

13 – نفسه. ص:398.

14 – سورة الأعراف، الآية: 54.

15 – سورة الروم، الآية: 4.

16 – الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري. ط1، دار ابن زيدون، لبنان. ص:21.

17 – الإرشاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. ص: 104.

وقال ابن فورك: "كان يقول: إن كلام الله صفة له قديمة، لم يزل قائما بذاته رافعا للسكوت والخرس والآفة عنها، وإن ذلك ليس بصوت ولا حرف ولا متعلق بمخارج وأدوات، وإنه مسموع على الحقيقة لله تعالى، ولمن أسمعه، ومفهوم لمن أفهمه"[18].

وقال الشهرستاني: "قال أبو الحسن الأشعري: الباري تعالى عالم بعلم، وقادر بقدرة، وحي بحياة، ومريد بإرادة، ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله في البقاء (صفة البقاء) اختلاف رأي، قال: وهذه صفات أزليه قائمة بذاته، لا يقال: هي هو، ولا غيره"[19].

فالأشعري لم يتعرض للكلام النفسي، وقد اختلف علماء المذهب في نسبة هذا إليه؛ ولكن إذا عُلِم أنه تتلمذ على يد تلاميذ أبي محمد عبد الله بن كلاب[20] وهو أول من قال بالكلام النفسي لما ناظر المعتزلة، فلا يبعد أن يكون الأشعري قال به أيضا. ونقل مظفر بن عبد الله المصري في شرح **"الإرشاد"** أنه أحد قوْلَيْ الأشعري؛ فقال: "فقد اختلف جواب أبي الحسن -رحمه الله- في تسمية اللفظ والطلب النفسي كلاما، فتارة يقول: هو حقيقة في الكلام القائم بالنفس ومجاز في العبارات"[21].

ونقل عنه الشهرستاني التفريق بين الكلام المنطوق المسموع والكلام المدلول عليه بتلك العبارات المسموعة؛ "إذ الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على كلام أزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي"[22].

ثانيا: صفة الكلام عند الباقلاني

بدأت بوادر القول بالكلام النفسي مع الإمام الباقلاني؛ ولكنه لم يتوسع فيه كما توسع من بعده، على الرغم من كثرة تآليفه في أصول الدين والتقعيد للمذهب، ولعل ذلك راجع إلى ظروف المرحلة التي لم تقتض الإطالة في هذه الجزئية كالتوسع في الدال والمدلول، وعدم قيام العرض بالعرض مثلا.

أثبت الباقلاني أن الله تعالى متكلم بكلام، وأنه صفة قائمة بذاته، وأفرد له ترجمة في كتابه التمهيد تحت عنوان: **"في نفي خلق القرآن"**، قال فيه في معرض مناقشته للمعتزلة: "والباري سبحانه حي لا يستحيل عندنا وعندكم أن يكون قائما متكلما، فوجب أن يكون وصفه لنفسه محمولا على الحقيقة دون المجاز"[23]. وألمح إلى القول بالكلام النفسي في تفسر قوله تعالى﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾، فقال: "إنا جعلنا العبارة عنه بلسان العرب، وأفهمنا أحكامه والمراد به اللسان العربي، وسميناه عربيا؛ لأن الجعل قد يكون بمعنى التسمية والحكم"[24]؛ لكنه بعد صفحات من هذا نجده يصرح بالكلام النفسي ويغلط المعتزلة في زعمهم أن الأشاعرة يتفقون معهم في حقيقة الكلام، فيقول: " ثم يقال لهم قد وهمتهم علينا في قولكم أننا لم نعقل كلاما إلا حرفا أو صوتا لأننا لم نعقل قط ذلك؛ لأن الكلام فيما بيننا إنما هو معنى قائم بالنفس يعبر عنه بهذه الأصوات المسموعة تارة وبغيرها أخرى"[25].

---

18 – مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ابن فورك. تح: أحمد السايح. ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006. ص: 60.

19 – الملل والنحل، الشهرستاني. تح: أحمد فهمي محمد. ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992. ج1/82.

20 – عبد الله بن سعيد كلاب: متكلم ، وهو رأس الطائفة الكلابية، كانت بينه وبين المعتزلة مناظرات. توفي بعد 240 هـ.

21 – شرح الإرشاد، مظفر بن عبد الله المصري، تح: نزيهة اهاريج، ط1، دار الأمان، الرباط، 2014. ج1/365.

22 – الملل والنحل، الشهرستاني. ج1/83.

23 – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، الباقلاني. تح: عماد أحمد حيدر. ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1987. ص: 284.

24 – نفسه. ص: 182.

25 – نفسه. ص: 184.

خلاصة

خالف الإمام الأشعري المعتزلة في أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يتوسع في ذلك توسعه في إثبات صفتي القدرة والإرادة، وقد اختلفت أقوال المذهب في نسبة كلام النفس إليه، ويغلب أنه قال به إلا إنه لم يركز عليه ويجعله عمدة، وأما الإمام الباقلاني فقد صرح بأن الكلام عند الأشاعرة هو المعنى القائم بالنفس، وبهذا يكون ظهور الكلام النفسي بالقطع في المذهب مع الباقلاني؛ ولكنه لم يفض فيه كما أفاض من بعده.

المطلب الثاني

صفة الكلام عند محققي المذهب الجويني والغزالي

أولا: الإمام الجويني

يعتبر كتاب الشامل للإمام الحرمين أهم ما كتبه الأشاعرة من حيث التحقيق والترتيب والتوسع والاستدلال ومحاجة الخصوم بالبراهين والحجج، قال ابن خلدون: "ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب **"الشامل"**[26] وأوسع القول فيه، ثم لخصه في كتاب **"الإرشاد"** واتخذه الناس إماما لعقائدهم"[27]. وجعل الجويني القضية الجوهرية في مسألة الكلام هي إثبات الكلام النفسي "أي الكلام القائم بالنفس هو التفكير؛ وهو اللوغوس اليوناني بالضبط في معناه الأصيل؛ أي: التفكر والتعقل"[28]، ونافح عن هذا القول، واستدل له بالأدلة العقلية والنقلية.

قال في الإرشاد: "قال شيخنا رحمه الله :الكلام ما أوجب لمحله كونه متكلما، وهذا فيه نظر عندنا، والأولى أن نقول : الكلام هو القول القائم بالنفس، وإن رمنا تفصيلا : فهو القول القائم بالنفس الذي تدل عليه العبارات وما اصطلح عليه من الإشارات"[29]. فالجويني لم يقتنع برأي شيخ المذهب ورأى أن يزاد في التوضيح حتى يستقيم الاستدلال عند المناظرة والمخاصمة، وهذا الكلام جاء به في سياق مناقشة المعتزلة في أن الكلام قد يكون حرفا واحدا ولا يستلزم منه أن يكون حروفا منتظمة دالة على معنى صحيح، كما في الأمر من : "وقى" أي "ق"؛ حيث يقول: "لا معنى للتقيد بالإفادة؛ فإن من لفظ بكلمات لا تفيد يقال: تكلم ولم يفهم، فلا معنى للتقييد بالإفادة"[30]. وفي هذه العبارة يظهر أثر المرجعية العقدية في صياغة اصطلاحات العلوم.

ومما ساقه الجويني دليلا على إثبات الكلام النفسي صيغة الأمر **"افعل"** فبيّن أنها لا تفيد وجوبا ولا ندبا ولا إباحة، وقد تكون نهيا وأنها متى أريد بها أحد هذه الأشياء؛ فإنها أي: الصيغة **(الدال)** ليست هي الإيجاب أو الندب **(المدلول)** حقيقة، فإذا كان ذلك "فإن صورة اللفظ في إرادة الإيجاب كصورة اللفظ في إرادة الاستحباب؛ إذ هو أصوات متقطعة ضربا من التقطع، والأصوات لا تختلف في انقسام الجهات والاحتمالات على القطع، فيلزم المصير إلى أن الإيجاب معنى في النفس، ثم تعتور عليه الدلالات بالعبارات وغيرها من الأمارات"[31].

---

26 – وقد اختصره مع كتاب "الهداية" الإمامان المالكيان أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير (ت**520**هـ) وأبو محمد عبد الغالب بن يوسف (ت**516**هـ)، وسمياه: "أنوار الحقائق في أسرار الدقائق".

27 – المقدمة، ابن خلدون. تح: سعيد عقيل. ص: **397**.

28 – مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمن بدوي. ط**1**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، **1971**. ج**1**/**733**.

29 – الإرشاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. ص: **104**.

30 – نفسه. ص:**103**.

31 – الإرشاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. ص: **107**.

ويتفق الجويني مع المعتزلة في أن تلك العبارات والإشـــارات الدالة على كلام الله مخلوقة؛ ولكنه يرفض أن يســـمى كلام الله مخلوقا، وهذا التفريق منه عجيب، يقول: "فإن معنى قولهم: هذه العبارات كلام الله: أنها خلقه، ونحن لا ننكر أنها خلق الله؛ ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلما به؛ فقد أطبقنا على المعنى، وتنازعنا في الاتفاق على التسمية"[32].

يتلخص مذهب الجويني في مسـألة كلام الله في تفريقه بين الكلام النفسـي والعبارة عنه بالأصـوات والحروف، فالكلام النفسـي أزلي والعبارة عنه محدثة.

ثانيا: الإمام الغزالي

اسـتعمل الإمام الغزالي المقاييس المنطقية في تعديد صـور قضـية كلام الله، ففصـل وشـرح، وبيّن أن القرآن الذي هو كلام الله تندرج تحته ثلاثة ألفاظ: **"قراءة"** و**"مقروء"** و**"قرآن"**؛ "أما **المقروء** فهو كلام الله أعني صفته القديمة القائمة بذاته، وأما **القراءة** فهي في اللســان عبارة عن فعل القارئ الذي كان ابتدأ بعد أن كان تاركا له ... وأما **القرآن** فقد يطلق ويراد به المقروء؛ فإن أريد به ذلك فهو قديم غير مخلوق وهو الذي أراد به السلف رضـوان الله عليهم بقولهم القرآن كلام الله غير مخلوق؛ أي المقروء بالألسـنة، وإن أريد به القراءة التي هي فعل القارئ؛ ففعل القارئ لا يسبق وجود القارئ، وما لا يسبق وجود الحادث فهو حادث"[33].

ولم يغفل الغزالي مســألة الكلام النفســي أثناء حديثة عن كلام الله، وتوســل إلى إثباته بالمنطق واللغة؛ فالكلام في الإنســان له اعتباران: **الأول:** الصـــوت والحرف. **والثاني:** كلام النفس، وهو في حقه -عز وجل- كمال، "وهو في كلام الله تعالى غير مُحال، ولا هو دال على الحدوث، ونحن لا نثبت في حق الله تعالى إلا كلام النفس، وكلام النفس لا ســبيل إلا إنكاره في حق الإنســان زائدا على القدرة والصوت، حتى يقول الإنسان: "زورت في نفسي كلاما، ويقال في نفس فلان كلاما، وهو يريد أن ينطق به، ويقول الشاعر:

لاَ يُعْجِبُكَ مِنْ أَثِيرٍ خَطِّهِ ... حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلاَمِ أَصِيلاَ

إِنَّ الْكَلاَمَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلاَ

وما ينطق به الشعراء يدل على أنه من الجليات، يشترك كافة الخلق في دركها، فكيف ينكر؟!"[34].

ونلتمس من كلام الغزالي في تحقيق ماهية الفكر والعلم الخطوة الأولى التي مهدت لنظرية النظم عند الجرجاني، ولا يبعد أن يكون قد استمدها من كلامه هذا؛ إذ يقول: "ما يسميه الناس كلام النفس وحديث النفس، هو العلم بنظم الألفاظ والعبارات، وتأليف المعاني المعلومة على وجه مخصـوص؛ فليس في القلب إلا معاني معلومة، وهي العلوم وألفاظ مسـموعة هي معلومة بالسـماع، وهو أيضـا علم معلوم اللفظ، وينضـاف إليه تأليف المعاني والألفاظ على ترتيب؛ وذلك فعل يسـمى **"فكرا"**، وتسـمى القوة التي عنها يصـدر الفعل **«قوة مفكرة»**"[35].

وهذا التفصـيل مما يتطلبه مقام الجدال والمناظرة، وإذا علمنا أن الغزالي من المتأخرين، وأنه اعتبر الفلاسـفة خصـومه فلذلك ناقشهم بما اعتادوه في الدراسات المنطقية والفلسفية، كما أراد توضيح الصورة المتنازع حولها، وأنه يندرج تحتها جزئيات، فالعلم ليس هو الفكر ولا هو القوة المفكرة، فالمعاني هي العلم وترتيب هذه المعاني هو الفكر والقوة المفكرة التي يصدر عنها الفعل قدرة.

---

32 – نفسه. ص: **117**.

33 – الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي. ط**1**، المطبعة الأدبية، مصر، (د–ت). ص: **58– 59**.

34 – الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي. ص: **54 –55**.

35 – نفسه. ص: **55**.

ونجده ينطلق من اعتقاده أن الدال ليس هو المدلول، وأنه قد يقع فيها الاشـــتراك؛ ليبرهن على أن كلام الله كلام نفســـي؛ "فإن الكلام كلام النفس تحقيقا؛ ولكن الألفاظ لدلالتها عليه أيضـا تسـمى كلاما، كما تسـمى علما، إذ يقال: سـمعت علم فلان، وإما تسـمع كلامه الدال على علمه، وأما في اسم المسـموع فإن المفهوم المعلوم بسـماع غيره قد يسـمى مسـموعا، كما يقال: سـمعت كلام الأمير على لسـان رسوله، ومعلوم أن كلام الأمير لا يقوم بلسان رسوله؛ بل المسموع كلام الرسول الدال على كلام الأمير"[36].

خلاصة

اسـتفاض الإمام الجويني في الحديث عن الكلام النفسـي واسـتدرك على إمام المذهب في تعريف الكلام، وأبان أن الكلام الله في الحقيقة ليس هو إلا الألفاظ المعبر بها عنه، واتفق مع المعتزلة في أن الحروف والأصـوات المعبر بها عنه مخلوقة؛ إلا أنه منع أن يكون الخالق متكلما به بهذه الصـفة، في حين زاد الإمام المسـألة تفصـيلا وشـرحا؛ فعدّد الصـور المترتبة عنها، وفصـل بين القرآن والمقروء والقراءة، وميز بين المعاني المعلومة في النفس، والفكر الذي يتولى ترتيب تلك المعاني، والقوة الفكرة التي يصـــدر عنها الفعل، وبين أن الدال والمدلول قد يقع فيهما الاشـتراك فيسـمى المدلول باسـم الدال لدلالته عليه، وهو فيها هذا يتوسـل بقوانين منطقية تعصـم الذهن من الخطإ في التصور.

المحور الثاني

أثر القول بالكلام النفسي في نظرية النظم عند الجرجاني

ألف الإمام عبد القاهر الجرجاني كتابه **"دلائل الإعجاز"** وأكثر فيه من بيان أساليب علم المعاني، وقصره في أغلبه على هذا الفن من علم البلاغة، مع العلم أن إعجاز القرآن يكمن في بلاغته، وبالبلاغة تضم المعاني والبيان والبديع، واقتصـاره على علم المعاني يدفعنا إلى التساؤل عن سبب هذا الصنيع؟ وهل يمكن أن يكون للمذهب العقدي أثر في هذا الصنيع؟ ثم لماذا سماه **"دلائل الإعجاز"** وهو مقصور في مجمله على فن واحد من فنون البلاغة؟

المطلب الأول

سبب الاقتصار على علم المعاني

هناك دوافع ألجأت الإمام الجرجاني إلى أن يقصـر كتابه على علم المعاني، وقد تضـمنها كتابه؛ إما بالتصـريح وإما بالتعريض. يمكن أن نجملها فيما يلي:

- الرد على من جعل المزية للفظ على المعنى[37].
- دحض الشـبهات واسـتبانة الدليل، ويقصـد به الرد على المعتزلة الذين التبس عليهم وجه الإعجاز في القرآن ولبسـوا على الناس.
- انتصـــاره لمزية المعاني على الألفاظ؛ حيث نجده يجعل المعول عليه في الإعجاز هو النظم والترتيب، والتأليف والتركيب، والنسـج والتحبير، ثم يجعل هذه المعول عليها معان في الحقيقة وأنها في الكلام مجاز؛ إذ يقول: "وأن سـبيل هذه المعاني في الكلام التي هي مجاز فيه سـبيلها في الأشـياء التي حقيقة فيها"، ويرى أن سـمو المعاني يسـتلزم تفوقا في الكلام "حتى ينتهي حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتسوى الأقدام في العجز"[38].

---

36 – الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي. ص: 60.

37 – يقصد به القاضي عبد الجبار، ينظر تعليق أبي فهر محمود شاكر على مقدمة دلائل الإعجاز.

38 – دلائل الإعجاز، الجرجاني. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط3، مطبعة المدني، القاهرة، مصر. 1992. ص: 35.

ومن خلال هذه النظرة الخاطفة في مقدمة كتابه نخلص إلى أن اقتصاره على علم المعاني في أغلب كتابه راجع في نظره إلى أن فضل الكلام إنما يكون بشرف المعنى، والنظم معنى يقع في النفس قبل أن يعبر عنه بالألفاظ في الخارج.

المطلب الثاني: أثر المذهب العقدي

أظهر الجرجاني في أول كتابه موقفه من المعتزلة وأنهم على باطل في تفضـــيلهم اللفظ على المعنى، وأكثر من الرد عليهم في مواطن كثيرة، وناقشـــهم في المُتَحدَّى بـه الذي أعجز العرب أهو المعنى أم اللفظ؟؟. فأجاب أنـه "أعجزهم مزايا ظهرت لهم نظمـه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظه ومواقعها"[39].

وقد برز الجانب العقدي في كتابه في الفصل الذي عقده **"في الفرق بين حروف منظومة وكلم منظومة"**، وهو يسعى من وراءه إلى الدفاع عن مذهبه العقدي الذي يثبت أن الكلام الله كلام نفسي قائم بذاته سبحانه، ويهدم قول المعتزلة القائلين بخلق القرآن، "وأن الكلام حروف منظومة وأصوات مقطعة"[40]، ففنّد قولهم بأن نظم الحروف لا يقتضي معنى، ولا الناظم بمتبع في ذلك سبيلا عقليا يقتضيه؛ إذ لا فرق بين أن يكون واضـع اللغة وضـع **"ربض"** للدلالة على **"ضـرب"**، وحين تكلم عن **"كلم منظومة"** ربطها بالمعاني، فيقول: "فأما "كلم منظومة" فليس فيه الأمر كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها أثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس"[41].

ونجده في عبارة أخرى يقرر أصول عقيدته في أن كلام الله نفسي قديم أزلي قائم بذات الله، وأن العبارات التي عبر بها عنه بعده في الوجود؛ لأن الدليل يكون بعد المدلول في الوجود، وبما أن الألفاظ أوعية للمعاني فهي متأخرة عنها، فيقول: "إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"[42].

المطلب الثالث

سبب تسمية علم المعاني

نصـب الجرجاني كتابه دليلا على الإعجاز في القرآن الكريم؛ حيث بين فيه أسـاليب العرب في الخطاب، ومناهجهم في الكلام، وعاداتهم في الحوار، وتطرق فيه لمباحث في الشبيه والاستعارة والمجاز؛ إلا أن أكثر مسائله في علم المعاني كأحوال المسند والمسند إليه، والفصل والوصل، والحصر، ومعاني الحروف ...، وكل هذا متعلق بنفس المتكلم في مراعاته لأحوال المخاطب ومقتضى الحال، ولما كانَ الأصـل هو إفهام المخاطب على وفق ما يقتضـيه الحال ومبحث **"المعاني"**، ثم يتلوه تعدد طرق الإفهام وهو مبحث **"البيان"**، وبعدها يكون التحسـين في العبارات وهو في **"البديع"**، رجح الجرجاني أن مكمن الإعجاز في نظمه، وأن النظم في المعاني، ولما كان كلام الله نفسيا عنده؛ أي: معاني، أرجع شرف علم المعاني إلى تعلقه بكلام الله في الحقيقة، فنصبه دليلا على إدراك إعجاز القرآن الذي هو نظم المعاني.

---

39 – نفسه. ص: 39.

40 – شرح الأصول الخمسة. القاضي عبد الجبار. تح: عبد الكريم عثمان. ط3، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1996. ص: 528.

41 – دلائل الإعجاز، الجرجاني. ص: 49.

42 – نفسه. ص: 52.

خاتمة:

نخلص من خلال ما سبق أن نظرية النظم عند الجرجاني ذات أسس معرفية أشعرية، وإن كانت في ظاهرها إلى علم البيان أقرب منها إلى علم الأصول الدين؛ فكشف البحث عن العلاقة الخفية بين الكلام النفسي عند الأشاعرة وبين نظم المعاني؛ التي هي كوامن في النفس، وقد حاول البحث أن يتتبع ذلك التطور المعرفي في قضية الكلام الإلهي عند أكابر الأشاعرة، ويرصد مواطن الاختلاف إلى أن استقر الأمر على ما بنى عليه الجرجاني نظريته البيانية.

ومن هذا نتبين أن قواعد اللغة، ونظريات البيان لا تستقل بنفسها، ولا تقوم على النسق البيان فقط؛ بل إنها تحتكم إلى الأصول البرهانية أو الإيمانية أو العرفانية لمقعدي تلك القواعد، وواضعي تلك النظريات، فالنسق اللغوي يعيش في لواء النسق العقدي والفكري.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري. ط1، دار ابن زيدون، لبنان.
- الإرشاد إلى أصول الاعتقاد، الجويني. تح: محمد يوسف وعلي عبد المنعم. مكتبة الخانجي، مصر، 1950.
- الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي. ط1، المطبعة الأدبية، مصر، (د-ت).
- الكليات، الكفوي. تح: عدنان درويش، محمد المصري. (د-ط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (د-ت). ص: 710.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي. (د-ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ت).
- المقدمة، ابن خلدون. تح: سعيد عقيل. دار الجيل، بيروت، لبنان، 2013.
- الملل والنحل، الشهرستاني. تح: أحمد فهمي محمد. ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992.
- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، الباقلاني. تح: عماد أحمد حيدر. ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1987.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط3، مطبعة المدني، القاهرة، مصر. 1992.
- شرح الإرشاد، مظفر بن عبد الله المصري، تح: نزيهة اهاريج، ط1، دار الأمان، الرباط، 2014.
- شرح الأصول الخمسة. القاضي عبد الجبار. تح: عبد الكريم عثمان. ط3، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1996.
- لسان العرب، ابن منظور. ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، (د-ت). مادة (ك ل م). ج12.
- مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمن بدوي. ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1971.
- مسألة كلام الله تعالى، عائض بن عبد الله الشهراني. مجلة العلوم الشرعية، العدد: 29/ شوال 1434.
- مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ابن فورك. تح: أحمد السايح. ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون. (د-ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د-ت). 131/5.